۳۰۵

۱۷۵۵۱

مجله	الازهر
تاریخ نشر	ربیع الاول ۱۴۰۰ق
شماره	۲ سال ۵۲
شماره مسلسل	
محلّ نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	موسی محمدعلی
تعداد صفحات	۳۶۷ - ۳۵۹
موضوع	ایاک نعبد وایاک نستعین
سرفصلها	
کیفیّت	
ملاحظات	

إياك نعبد وإياك نستعين

فضيلة الشيخ موسى محمد على

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين .

وبعد :

فيقول الله تعالى :

« اياك نعبد واياك نستعين » .

العبادة : هى الفعل الذى يؤدى به الفرض لتعظيم الله سبحانه وتعالى ، وهو مأخوذ من قولهم : « طريق معبد » أى مذلل .

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ، من العبد ، ونهاية التعظيم لله سبحانه ، لأنه العظيم المستحق للعبادة ، ولا تستعمل العبادة الا فى الخضوع له تعالى ، لأنه مولي أعظم النعم ، وهى ايجاد العبد من العدم الى الوجود ، ثم هداه الى دينه ؛ فكان العبد حقيقا بالخضوع والتذلل له سبحانه ، وما سمى العبد عبدا الا لذلته وانقياده .

وقول العبد : « اياك نعبد » معناه : اياك نخص بالعبادة ، ونوحدك ونطيعك خاضعين لك لا نعبد أحدا سواك .

والذى يدل على حصر العبادة لله وحده سبحانه ، أن العبادة عبارة عن نهاية التعظيم ، والاجلال مع وجود الذلة والافتقار والانكسار ، والخضوع والخشوع ، والتواضع ، وصرف الهمة وعدم الانشغال والاشتغال .

والعبادة على هذا النحو لا تليق الا بمن صدر عنه غاية الانعام والافضال والاحسان .

وأعظم وجوه الانعام : الحياة التى تفيد التمكن من الانتفاع ، وخلق المنتفع به .

ولما كانت المصالح الحاصلة فى هذا العالم انما تنتظم بالحركات الفلكية على سبيل اجراء العادة ، ثبت أن كل النعم حاصلة بايجاد الله سبحانه ، فوجب أن لا تحسن العبادة الا لله تعالى ، ولهذا قال : « اياك نعبد » .

وبافادة الحصر فى قوله : « اياك نعبد » تعين أن الله تبارك وتعالى سمى نفسه بأسماء هى : الله ، والرب ، والرحمن ، والرحيم ، ومالك يوم الدين .

وللعبد أحوال ثلاثة : الماضى ، والحاضر ، والمستقبل .

أما الماضى فقد كان معدوما محضا كما قال تعالى : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) .

وكان ميتا فأحياه الله تعالى كما قال : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » .

وكان جاهلا فعلمه الله كما قال : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » .

والعبد انما انتقل من العدم الى الوجود ، ومن الموت الى الحياة ، ومن العجز الى القدرة ، ومن الجهل الى العلم ، لأجل أن الله تعالى كان قديما أزليا ، فقدرته الأزلية وعلمه الأزلى ، أحدثه ونقله من العدم الى الوجود ، فهو اله لهذا المعنى .

وأما الحال الحاضرة للعبد فحاجته شديدة ، لأنه كلما كان معدوما كان محتاجا الى الرب الرحمن الرحيم ، فلما دخل فى الوجود انفتحت عليه أبواب الحاجات ، وحصلت عنده أسباب الضرورات ، فقال الله تعالى : (أنا اله لأجل أنى أخرجتك من العدم الى الوجود ، أما بعد أن

صرت موجودا .فقد كثرت حاجاتك الى فأنا رب رحمن رحيم) .

وأما الحال المستقبلة للعبد : فهى حال ما بعد الموت والصفة المتعلقة بتلك الحالة هى قوله : « مالك يوم الدين » فصارت هذه الصفات الخمس من صفات الله تعالى متعلقة بهذه الأحوال الثلاثة للعبد ، فجميع مصالح العبد فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، لا تتم ولا تكمل الا بالله وفضله واحسانه ، فلما كان الامر كذلك وجب أن لا يشتغل العبد بعبادة شىء الا بعبادة الله تعالى وحده ، فلا معبود الا هو ، ولهذا قال سبحانه :

« اياك نعبد واياك نستعين » ..

ولما كان الله تبارك وتعالى ، أشرف الموجودات وأعلاها قدرا ، وقدرته سبحانه أعلى من قدرة غيره ، وعلمه أكمل من علم غيره ، وجوده أفضل من وجود غيره ، وجب القطع أن عبوديته تعالى أحق وأولى من عبودية غيره .

فاستحقاق العبادة يستدعى قدرة الله تعالى ، بأن يمسك سماء بلا علاقة ، وأرضا بلا دعامة ، ويسير الشمس والقمر ، ويخرج النار من السحاب تارة ، والهواء أخرى ، والماء ثالثة .

وأما فى الأرض : فتارة يخرج الماء من الحجر ، وهو ظاهر ، وتارة يخرج الحجر من الماء ، وهو الجمد ، ثم يجعل فى الأرض أجساما مقيمة لا تسافر وهى الجبال ، وأجساما مسافرة لا تقيم وهى الانهار .

وخسف بقارون فجعل الأرض فوقه ، ورفع محمدا صلى الله عليه وسلم ، فجعل قاب قوسين تحته ، وجعل الماء نارا على قوم فرعون : أغرقوا فأدخلوا نارا ، وجعل النار بردا وسلاما على ابراهيم ، ورفع موسى فوق الطور ، وأغرق الدنيا من التنور ، وجعل البحر يبسا لموسى عليه السلام .

فما كانت قدرته كذلك ، كيف يسوى فى العبادة بينه وبين غيره من الجمادات ، أو النبات

أو الحيوان أو الانسان ؟ ان التسوية بين الناقص والكامل ، وبين القادر وبين المعدم سفه وجهل ، فلا ينبغى أن تتأتى بحال .

ومتى كان الأمر كذلك ، ثبت أنه لامعبود الا الله ، ولا اله الا هو ، وأن قوله : « اياك نعبد واياك نستعين » يدل على التوحيد المحض لله رب العالمين .

فمن اتخذ لله شريكا فانه لا بد وأن يكون مقدما على عبادة ذلك الشريك من بعض الوجوه ، اما طلبا لنفعه أو خوفا من ضرره .

أما الذين أصروا على التوحيد ، وأبطلوا القول بالشركاء والاضداد، ولم يعبدوا الا الله تعالى ، ولم يلتفتوا الى غير الله سبحانه ، فكان رجاؤهم من الله ، وخوفهم من الله ، ورغبتهم فى الله ، ورهبتهم من الله ، لم يعبدوا الا الله ، ولم يستعينوا الا بالله ، فلهذا قالوا : « اياك نعبد واياكَ نستعين » .

فكان قولهم : « اياك نعبد واياك نستعين » قائما مقام قولهم « لا اله الا الله » .

والعبادة لله بالذكر المشهور هو أن تقول :

سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وقولنا : الحمد لله يدخل فيه معنى قولنا سبحان الله ، لأن قول سبحان الله يدل على كونه كاملا تاما فى ذاته ، وقول الحمد لله . يدل على كونه مكملا متما لغيره ، والشىء لا يكون مكملا متما لغيره الا اذا كان قبل ذلك تاما كاملا فى ذاته ، فوضح أن قولنا الحمد لله دخل فيه معنى قولنا سبحان الله .

ولما قال العبد الحمد لله وأثبت جميع أنواع الحمد : ذكر ما يجرى مجرى العلة لاثبات جميع أنواع الحمد لله ، فوصفه بالصفات الخمس وهى التى لأجلها تتم مصالح العبد فى الأوقات الثلاثة ، ثم ذكر بعده قوله « اياك نعبد » ، وقد ذكرنا أنه قائم مقام لا اله الا الله ، ثم ذكر قوله « واياك نستعين » ومعناه أن الله تعالى أعلى وأجل وأكبر من أن

يتم مقصود من المقاصد ، وغرض من الأغراض ، الا باعانته وتوفيقه ، واحسانه ؛ وهذا هو المراد من قولنا : « ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

فمن عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها وثقل عليه الاشتغال لغيرها ، فان الكمال محبوب بالذات ، وأكمل أحوال الانسان وأقواها ـ فى كونها سعادة ـ اشتغاله بعبادة الله سبحانه ، فانه يستنير قلبه بنور الالهية ، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والقراءة ، وتتجمل أعضاؤه بجمال خدمة الله تعالى ، وهذه الأحوال أشرف المراتب الانسانية والدرجات البشرية ، فاذا كان حصول هذه الأحوال أعظم السعادات الإنسانية فى الحال ، وهى موجبة أيضا لأكمل السعادات فى الزمان المستقبل ، فمن وقف على هذه الأحوال زال عنه ثقل الطاعات وعظمت حلاوتها فى قلبه .

فان العبادة أمانة « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان » .

وأداء الامانة واجب عقلا وشرعا ، يقول سبحانه :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها »

وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات ، وأداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثانى ، قال بعض الصحابة :

رأيت أعرابيا أتى باب المسجد فنزل عن ناقته وتركها ودخل المسجد وصلى بالسكينة والوقار ، ودعا بما شاء ، فتعجبنا ، فلما خرج لم يجد ناقته ، فقال :

الهى أديت أمانتك فأين أمانتى ؟

قال الراوى : فزدنا تعجبا ، فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته وقد قطع يده وسلم الناقة اليه .

والنكتة أنه لما حفظ أمانة الله حفظ الله أمانته ، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام لابن عباس : يا غلام احفظ الله « فى

الخـــلوات » يحفظـــك « فى الفلوات » •

والاشتغال بالعبادة انتقـال من عالم الغرور الى عالم السرور ، ومن الاشـتغال بالخـلق الى حضـرة الحق ، وذلك يوجب كمال اللذة والبهجة : فعن أبى حنيفة أن حيـة سقطت من السقف وتفرق الناس ، وكان أبو حنيفة فى الصـلاة ولم يشعر بهـا •

ووقعت الآكلة فى بعض أعضـاء عروة بن الزبير ، واحتاجوا الى قطع ذلك العضو ، فلما شرع فى الصلاة قطعوا منه ذلك العضـو فلم يشعر عروة بذلك القطع •

وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما كان يشرع فى الصلاة كانوا يسمعون من صدره أزيزا كأزيز المرجل ، ومن استبعد هـذا فليقرأ قوله تعالى : (فلما رأينـه أكبرنه وقطعن أيديهن) فان النسوة لما غلب على قلوبهن جمال يوسف عليه السلام وصلت تلك الغلبة الى حيث قطعـن أيديهـن وما شعرن بذلك •

فاذا جاز هذا فى حق البشر فلأن يجوز عند استيلاء عظمة الله على القلب أولى •

وأهل التحقيق يقولون : العبادة درجات ثلاث : الأولى : أن يعبد الله طمعا فى الثواب أو خـوفا من العقاب ، وهذا هو المسمى بالعبادة ؛ وهذه الدرجة نازلة ساقطة ، لأن معبـوده فى الحقيقـة هـو ذلك الثواب ؛ وقد جعل الحق وسيلة الى نيل المطلوب •

الثانية : أن يعبد الله لأجل أن يتشرف بعبادته ، أو يتشرف بقبول تكاليفه أو يتشرف بالانتساب اليه ؛ وهذه الدرجة أعلى من الأولى ، الا أنها أيضا ليست كامـلة ، لأن المقصود بالذات غير الله تعالى •

والثالثة : أن يعبـد الله لكونه الها وخالقا ، ولكونه عبدا له ، والالهية توجب الهيبة والعـزة ، والعبودية توجب الخشوع والذلة ، وهـذا أعـلى المقـامات وأشرف الدرجات وهو المسمى بالعبودية ، واليـه الاشارة بقـول المصلى فى أول الصلاة أصلى لله •

والعبادة والعبودية مقام عال شريف ، يدل عليه : قوله تعالى :

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

فالله سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالمواظبة على العبادة الى أن يأتيه الأجل ، ومعناه أنه لا يجوز الاخلال بالعبادة فى شىء من الأوقات ، وذلك يدل على غاية جلالة أمر العبادة .

وأنه قال : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) .

ثم انه تعالى أمره بأربعة أشياء : التسبيح وهو قوله : « فسبح » والتحميد : وهو قوله « بحمد ربك » .

والسجود : وهو قوله : « وكن من الساجدين » .

والعبادة : وهى قوله : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

وهذا يدل على أن العبادة تزيل ضيق القلب ، وتفيد انشراح الصدر ، وما ذاك الا لأن العبادة توجب الرجوع من الخلق الى الحق ، وذلك يوجب زوال ضيق القلب .

ذلك لأن العبد محدث ممكن الوجود لذاته ، فلولا تأثير قدرة الحق فيه لبقى فى ظلمة العدم وفى فناء الفناء ، ولم يحصل له الوجود ، فضلا عن كمالات الوجود ، فلما تعلقت قدرة الحق به وفاضت عليه آثار جوده وايجاده ، حصل له الوجود ، وكمالات الوجود .

ولا معنى لكونه مقدور قدرة الحق ، ولكونه متعلق ايجاد الحق ، الا بالعبودية .

فكل شرف وكمال وبهجة وفضيلة ومسرة ومنقبة حصلت للعبد ، فانما حصلت للعبد ، بسبب العبودية .

فثبت بذلك أن العبودية مفتاح الخيرات ، وعنوان السعادات ، ومطلع الدرجات ، وينبوع الكرامات ، ولهذا السبب قال العبد : « إياك نعبد واياك نستعين » .

وكان الامام على كرم الله وجهه يقول :

« كفى بى فخرا أن أكون لك عبدا ، وكفى بى شرفا أن تكون لى ربا ، اللهم انى وجدتك الها كما أردت فاجعلنى عبدا كما أردت •

والمقامات محصورة فى مقامين : معرفة الربوبية ، ومعرفة العبودية ، وعند اجتماعها يحصل العهد المذكور فى قوله (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) •

أما معرفة الربوبية فكمالها مذكور فى قوله : (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) •

فكون العبد منتقلا من العدم السابق الى الوجود يدل على كونه الها •

وحصول الخيرات والسعادات للعبد حال وجوده يدل على كونه ربا رحمانا رحيما •

وأحوال معاد العبد تدل على كونه مالك يوم الدين •

وعند الاحاطة بهذه الصفات حصلت معرفة الربوبية على أقصى الغايات ، وبعدها جاءت معرفة العبودية ، ولها مبدأ وكمال ، وأول وآخر •

أما مبدؤها وأولها فهو الاشتغال بالعبودية وهو المراد بقوله (اياك نعبد) •

وأما كمالها فهو أن يعرف العبد أنه لا حول عن معصية الله تعالى الا بعصمة الله سبحانه ، ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ، فعند ذلك يستعين بالله فى تحصيل كل المطالب ، وذلك هو المراد بقوله (واياك نستعين) •

وبعد : فان الابتداء بذكر المعبود أتم من الابتداء بذكر صفته التى هى عبادته واستعانته ، وهذه الصيغة أجزل فى اللفظ ، وأعذب فى السمع •

والعبادة الاتيان بغاية ما فى بابها من الخضوع ، ويكون ذلك بموافقة الأمر ، والوقوف حيثما وقف الشرع •

والاستعانة طلب الاعانة من الحق سبحانه وتعالى .

فالعبادة تشير الى بذل الجهد والمنة ، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمنة .

فبالعبادة يظهر شرف العبد ، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد .

في العبادة وجود شرفه ، وبالاستعانة أمان تلفه .

فالعبادة ظاهرها تذلل ، وحقيقتها تعزز وتجمل ، والاستعانة اجلال لنعوت كرمه ، وتسليم بحكمه وأمره .

وبالله التوفيق

موسى محمد على

« وحدانية الخالق »

مما روى عن الامام جعفر الصادق :

انه راى جده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى منامه ، فسأله عن حقيقة التوحيد ؟.

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل ماخطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك » .